الفصل الثامن

وعاد إلى أرض الوطن

والحزن، متى أفرط، عاصرك ومفنيك،
والقريب، إذا آذاك، غريب، وأذاه الحياة منهيك،
والجهل، متى عم، في كل مكان عالق فيك.
الشاعر الكازاخي أباي

في حياة كل دبلوماسي تأتي اللحظة التي يعود فيها إلى وطنه، وهذا بالنسبة لبعض الدبلوماسيين يعني الترقي في المهنة والتعيين في منصب جديد، ولبعضهم الآخر نهاية مشوارهم الدبلوماسي. وفي نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين كان الاستدعاء لموسكو بالنسبة لكثيرين من الدبلوماسيين السوفيت ينتهي باعتقالهم وسجنهم وإعدامهم، ففي بداية الأربعينيات وصل عدد من وقعوا ضحية لعمليات القمع والاضطهاد من أعضاء اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية إلى خمسة من نواب اللجنة و٤٨ من المندوبين المفوضين و٣٠ من رؤساء الإدارات و٢٨ من رؤساء المكاتب القنصلية و١١٣ من بقية أعضاء اللجنة، ومن عاصر هذه الفترة يذكر كيف كانت طرقات ديوان اللجنة خالية تدوي فيها الريح بالمعني الحرفي للكلمة.

ولكي نعطي تصورا أفضل عن حجم تلك الخسائر تجدر بنا الإشارة إلى أنه قبيل الحرب العالمية الثانية لم يكن للاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية

إلا مع ٣٠ دولة من دول العالم، أما عدد أعضاء السلك الدبلوماسي بلجنة الشؤون الخارجية فكان أقل من ٥٠٠ دبلوماسي، وفي الوقت نفسه وفي هذه الفترة بالتحديد تم استدعاء العديد من أعضاء السفارات السوفيتية من بعض دول العالم واضطهادهم، حتى أن ليتفينوف في أواخر أيامه في منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية بعث بتقرير إلى يوسف ستالين يقول فيه: "حتى هذه اللحظة وصل عدد بعثاتنا الخالية من المندوبين المفوضين إلى تسع بعثات في تسع عواصم، هي واشنطن وطوكيو ووارسو وبوخارست وبرشلونة وكوفنو وكوبنهاجن وبودابست وصوفيا... وفي بعض العواصم المذكورة ليس لدينا مندوب مفوض منذ أكثر من سنة، والإبقاء على القائمين بالأعمال في رئاسة السفارات والبعثات مدة طويلة يأخذ معنى سياسيا ويفسّر على أنه نتيجة لعدم الارتياح للعلاقات الدبلوماسية".

إن عمليات التطهير التي قام بها ستالين في لجنة الشؤون الخارجية كان ترجع -على حد كلامه الذي رد به على ليتفينوف عندما اعترض عليه- "لأسباب تتعلق بالصالح السياسي وتنبع من الوضع الخارجي والداخلي"، وقد طال هذا التطهير عددا من الدول بما في ذلك الصين ومنغوليا وفنلندة ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وكذلك المملكة العربية السعودية التي أمضي فيها نذير تيورياقولوف ثمانية أعوام من العمل الدؤوب مندوبًا مفوضًا لبلاده.

وقد تناولت الكثير من الأقلام هذه الفترة المأساوية من التاريخ السوفيتي ، ومع ذلك وحتى يومنا هذا لا يكل شهود العيان ممن عايشوا هذه الأحداث الغابرة من التطرق إلى هذا الموضوع كلما ذكروا به، ومنهم الكاتب ف. كاربوف

الحاصل على وسام البطولة للاتحاد السوفيتي والذي كان من نزلاء معسكرات الأشغال والتهذيب التي أقامها ستالين، حيث يصف المواجهة التي لم تنقطع في الصراع على السلطة بدءًا من الأيام الأولى للثورة والحرب الأهلية وحملة الاضطهاد الستاليني التي تلتها، فيقول:

"ثم بدأت العملية ككتلة جليد تنهار من قمة الجبل، إذ راح ستالين يسحق أعداءه في موسكو، بينما بدأ أعوانه في الأقاليم ينقّبون عن الأعداء في الجمهوريات والمقاطعات لينالوا حظوة لدى الأمين العام للحزب الشيوعي، وفي الوقت نفسه يتخلّصون من الحاقدين وكل من لا تستريح له السلطة المحلية...".

وهذا تماما ما يمكن قوله أيضا عن المصير المأساوي الذي واجه نذير تيورياقولوف، فنشاطه الدؤوب والأكثر من ناجح في سنوات الثورة، ثم بعد ذلك في منصب رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بتركستان وفي دار النشر المركزية في موسكو، وأخيرا في منصب المندوب المفوض في المملكة العربية السعودية، لم يكن ليمر دون أن يخلّف له الكثير من «الأصدقاء» والأعداء الألِدَّة في تلك السنوات العصيبة والمليئة بالمآسي.

وهذا تقريبا ما صرخ به راسكولنيكوف الدبلوماسي السوفيتي «من دفعة ليتفينوف» في «خطابه المفتوح إلى ستالين»، حيث قال: "رغم علمكم بأنه في ظل افتقارنا للكوادر يعزّ علينا كثيرا كل دبلوماسي متنور ومحنّك، قمتم باستدراج المندوبين السوفيت إلى موسكو والقضاء عليهم واحدا تلو الآخر. لقد قضيتم على جهاز اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية برمته".

إن التطهير الذي أعقب خلع ليتفينوف قد أنهى عملية إقصاء الدبلوماسيين المهرة وذوي الخبرة، ولذا كان استدعاء نذير تيورياقولوف من المملكة العربية السعودية يعني في واقع الأمر نقمة سياسية وليس «نقلا لعمل آخر» كما تم تفسيره للملك وحكومته. وقد صدر قرار «إعفاء الرفيق تيورياقولوف من مهامه كمندوب مفوض لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لدى الحجاز» في جلسة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي في الثالث من يناير عام ١٩٣٦م، والجدير بالذكر أنه لم تصدر أي تعليقات حول أسباب الاستقالة والتعيين في منصب جديد، وهذا وحده كان كافيا في ذلك الوقت لنسج الافتراضات حول المصير السيئ الذي كان بانتظار المندوب.

ولكن من الواضح أن تيورياقولوف نفسه لم يفاجأ بتطور الأحداث بهذه الصورة، ففي طريقه إلى أرض الوطن حدث أن التقى في باريس مع حكيموف الذي تم تعيينه مرة أخرى في الحجاز، وقد وجد حكيموف -على حد قوله- تيورياقولوف في حالة صعبة، فثماني سنوات من العمل المضني في بلد مناخه ينهك القوى مع قلة الإجازات لم تكن لتمر دون أن تترك آثارها على المندوب المفوض. انظر ماذا يقول حكيموف: «لقد جاء إلى باريس مريضا، وأصابه صمم كامل تقريبا، وهو الآن يعالج لدى كبار الأطباء الفرنسيين حتى يستغل وجوده في باريس لاستعادة صحته، وفي العشرين من يناير سيتوجه إلى برلين حيث سيظل هناك أسبوعا ثم بعدها يواصل طريقه إلى موسكو. وبعد وصول أمتعته الثقيلة إلى برلين قام الرفيق بيلياييف بإرسالها إلى جمارك موسكو".

ويتضح من العبارة الأخيرة أن تيورياقولوف كان يدرك وهو يغادر المملكة العربية السعودية في هذه المرة أنه على الأغلب لن يعود إليها ثانية.

ومع ذلك فاللقاءات والحوارات التي جرت مع حكيموف، وكذلك الخطاب الذي بعث به من باريس إلى موسكو يكشف النقاب بعض الشيء عن سر استدعاء تيورياقولوف من جدة، حيث يُفهم من لهجة الخطاب ومضمونه أن قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية قد ظهرت لديها مبررات للشك في صحة المعلومات الواردة من تيورياقولوف في الآونة الأخيرة. ودور حكيموف في هذا الموقف ليس مفهوما تماما، ولكن من الواضح أن موسكو كانت تنتظر منه تقريرا مفصلا عن ميول وآراء تيورياقولوف، وهو بالفعل ما ضمنه الخطاب المؤرخ في الأول من يناير عام ١٩٣٦م والذي يقول فيه: "لقد طرحت أمام الرفيق تيورياقولوف كافة القضايا التي تهمكم وتهمني أنا شخصيا أيضا، والانطباع العام الذي خرجت به من حواري مع الرفيق تيورياقولوف هو: أنه كان يشارك بنشاط بالغ في الحياة المحلية، وخاصة بصدد مراقبة القادمين والمغادرين الذين كانوا يمثلون أهمية بشكل أو بآخر من حيث نشاطهم في المناطق التي تعنينا، مثل تنقلات مواطني سينزيان والمهاجرين من آسيا الوسطى والمهاجرين الأتراك... إلخ ممن هم دائمي التنقل بين مكة والهند وسينزيان.

كما أن وصف الرفيق تيورياقولوف للمكانة الدولية للسعودية والوضع الداخلي بها يوضّح أنه مطلع بدرجة كافية على ما يجري سواء في مجال العلاقات الدولية أو الوضع الداخلي في السعودية.

وقد كررت عليه سؤالا واحدا أكثر من مرة: بم يمكن تفسير أنه رغم قيامه برصد ما يجري واطلاعه بدرجة كافية على الأوضاع لم يحط موسكو علما ولم يرد حتى على استفساراتها المتكررة، ولكني لم أحصل على إجابة مقنعة، صحيح أنني لأسباب معروفة لم ألح كثيرا في هذا الأمر، حيث أعتقد أن الأهم بالنسبة لى كان هو الحصول منه على كل ما يمكن أن يبوح به هو فقط من خبرة السنوات الثمانية. ويمكن القول الآن بثقة إن المخاوف المعروفة التي أعرب عنها رجالنا في موسكو لم يكن لها أساس".

وبعد أن عاد تيورياقولوف إلى موسكو ظل بعض الوقت ضمن صفوف الاحتياطي بلجنة الشؤون الخارجية، وعاد للإقامة بمسكنه القديم بالشقة رقم ٣٠٩ فيما يسمى «بمجمع مساكن الحكومة الأول» بشارع سيرافيموفيتش، ولم يرغب في أن يبقى عاطلا فعاد إلى الاشتغال بالعلم في معهد اللغة والكتابة التابع لمجلس القوميات باللجنة التنفيذية المركزية، إلا أنه في يونيو من عام ١٩٣٦م تم نقله مرة أخرى إلى صفوف الاحتياطي، ولكن هذه المرة احتياطي اللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، وهذا مقيد باستمارة تسجيله بعضوية الحزب، وكان هذا يعني - طبقا لما كان معمولا به في النشاط الحكومي والحزبي في ذلك الوقت - أنه قد يكون في انتظاره منصب حزبي كبير أو مركز مرموق في مؤسسات السلطة في الدولة، وبدا أن الشكوك في نزاهة تيورياقولوف قد بدأت تتبدد تدريجيا.

إلا أن اللجنة الشعبية للشؤون الداخلية كان لها رأي معاكس بشأن هذه المسألة، ويمكن الافتراض -وثمة مبررات لذلك- بأن الشكوك في ولاء

تيورياقولوف جاءت من التقارير المبتذلة التي كانت ترد أيضا من المحيطين به.

لقد حاول تيورياقولوف في حدود ما تسمح به مهامه ألا يقتصر في اتصالاته على رجال الصفوة السعودية فحسب، فبصفته خبيرا في شؤون الشرق الأوسط كان يدرك مدى أهمية توطيد العلاقات مع الدول الأخرى بالمنطقة بالنسبة للاتحاد السوفيتي، وبحكم اتساع أفقه وسعة مداركه وقدرته على التحاور كان يجذب انتباه مختلف البشر الذين كانوا يتعاملون معه عن طيب خاطر، وكان يرسل إلى موسكو أقيم المعلومات عن الوضع في المنطقة والموقف على الحدود والعلاقات والاتصالات التي يقوم بها زعماء دول الشرق الأوسط مع الدول الغربية، وكان من بين مصادره الرئيسة في ذلك زملاؤه من البعثة التركية الذين ظل على علاقة وثيقة بهم طوال السنوات الثمانية التي قضاها في عمله بالمملكة.

بالفعل كان تيورياقولوف يتعامل مع زملائه من الدبلوماسيين الأتراك بودّ واضح، وكان قد التقى بالمندوب التركي ساني بيه لأول مرة في جنازة بيكينين مترجم البعثة الذي توفي بعد وصول تيورياقولوف إلى جدة بفترة وجيزة، ووقتها أشار تيورياقولوف في تقريره إلى الإدارة أن المندوب التركي كان من أوائل من جاؤوا لتقديم العزاء، ثم بعد ذلك تكررت لقاءاتهما عدة مرات، وكانا متفقين في الرأي بشأن العديد من القضايا، ويمكن القول أن كلا منهما كان يروق للآخر. وعلى أي حال فبخلاف الإنجليز لم يكن ساني بيه يعترض على ترشيح المندوب السوفيتي لعمادة الدبلوماسيين، بل على العكس كان يرحب بذلك.

كذلك كوّن تيورياقولوف وساني بيه جبهة واحدة في المسألة الخاصة باستقبال أعضاء السلك الدبلوماسي للأمير الأفغاني السابق أمان الله لدى وصوله إلى جدة، حيث كان عين المُلْك مندوب فارس لدى المملكة العربية السعودية يصرّ على لقاء الدبلوماسيين به، إلا أن هذا لم يكن يناسب الجانب السوفيتي، لكن هذا الرأي كان يتطلب مساندة من مندوبي الدول الأخرى، عندئذ توجّه تيورياقولوف إلى الأتراك، ويقول في أحد تقاريره بهذا الصدد: "وفي اليوم نفسه التقيت بساني بيه، واستفسرت منه عن موقفه من هذا اللقاء، فأعلن موافقته على وجهة نظرنا بشكل قاطع، وبدا الأمر أن لديه تعليمات محددة بهذا الصدد، رغم أنه راح يؤكد أن هذا الموضوع جديد عليه وهو لا يعرف رأي أنقرة بشأنه". واضطر مندوب فارس للتخلي عن فكرته السابقة "بلقاء أمان الله لدى وصوله إلى جدة، ولكنه صرح بأنه ينوي القيام بزيارة خاصة له بعد أن يتحدد مقر إقامته بأحد المنازل بجدة". وبما أن المندوب التركي كان لديه أسبابه التي تمنعه من لقاء أمان الله لدى وصوله فإنه أيضا "لن يزوره بعد ذلك، لأن هذه الأسباب لا يمكن أن تتغير بعد انتقال الأمير من الباخرة إلى مقر إقامته في جدة". لذلك أيّد المندوب السوفيتي من جانبه وجهة نظر ساني بيه.

حتى على المستوى الحياتي كانت العلاقات بين المندوب السوفيتي وأعضاء البعثة التركية وديّة للغاية، فعندما اشتد المرض على نائب القنصل التركي بعد وصوله إلى العمل بجدة تم نقله إلى المستشفى العام حيث كانت العناية به - لنقل - دون المستوى، حينئذ انضم طبيب البعثة السوفيتية موشكوفسكي للمشاركة في علاجه بالتنسيق مع تيورياقولوف.

ولم تكن هناك عملياً أي مشاكل في العلاقات بين بعثتي البلدين لدى المملكة، كذلك لم يشكّل الأتراك منافسة جادة في مسائل التأثير على سياسة الملك ولم يبدوا في ذلك نشاطا كبيرا. وتبرز في هذا المقام إلى حد ما زيارة محمود نديم الوالي العثماني السابق على اليمن والذي جاء إلى الحجاز --على حد ظن تيورياقولوف- يحمل خططا موجهة ضد الإمام يحيى، وقد استقبله الملك آل سعود وقدم له ساني بيه كل عون ممكن، ولكن هذه المسألة سرعان ما تم تسويتها بعد أن أرسل الاتحاد السوفيتي استفسارا إلى أنقرة بشأن الزيارة، وحصل على تأكيدات من الجانب التركي بأن الزيارة كانت تحمل طابعا غير رسمي. وإشكالية اليمن كانت تتعلق في الحقيقية بالوضع في منطقة عسير الحدودية، ولذلك تلقى تيورياقولوف من قيادة اللجنة الشعبية التعليمات التالية: "... حفاظا على صورتنا كدولة لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى... يجب تحيّن الفرصة المناسبة للإعراب عن وجهة نظرنا بأن النزاع المسلح بين الدولتين العربيتين سيلحق الضرر بكليهما، وأن هذا النزاع لا يخدم إلا مصالح طرف ثالث...".

لقد أكد التعاون الوثيق بين البعثتين قوة العلاقات السوفيتية التركية التي كادت تتخذ طابع التحالف في ذلك الوقت، فعندما وصل جلال عارف القائم بالأعمال التركي الجديد إلى جدة في عام ١٩٣٠م أعلن لتيورياقولوف أنه قد صدرت إليه تعليمات خاصة بالتعاون الوثيق مع المندوب السوفيتي، وكتب تيورياقولوف وقتها لموسكو يقول: "يبدو أن أنقرة قد بدأت تستجيب لتصوراتنا المتكررة حول ضرورة المزيد من الاتصالات الوثيقة بين مندوبي البلدين في الجزيرة العربية".

وكانت هذه الاتصالات «وثيقة» للغاية لدرجة أن المندوب السوفيتي ارتأى ضرورة أن يتقدم بالتماس إلى اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية لتقوم بعمل اللازم مع وزارة الخارجية التركية لرفع درجة مندوبها في جدة، وقد علم حكيموف بذلك من حواره مع تيورياقولوف في باريس، فكتب إلى اللجنة الشعبية يقول إن "القائم بالأعمال التركي طلب مساعدته كي تقوم أنقرة بترقيته لدرجة مبعوث، وقد شكا الرفيق تيورياقولوف بدوره من عدم المبالاة التي تعاملت بها موسكو مع هذه المسألة، حيث ظل شهورا طويلة ينتظر رد موسكو ولكنها لم ترد. وقد التقيت مع كاراخان وأبلغته بالطلب التركي، فوعدني بأنه سيطرح الموضوع على ريوشت، وسمح لي أن أبلغ التركي بذلك إذا لزم الأمر".

وبعد أن عاد تيورياقولوف إلى موسكو ورغم كونه ضمن صفوف الاحتياطيين رأى أنه لابد أن ينهي ما بدأه، خاصة وأنه كان يرى من قلبه أن الحفاظ على علاقات الصداقة مع تركيا بشكل عام وبعثتها في المملكة العربية السعودية بشكل خاص هو أمر غاية في الأهمية، ولذلك جدد الطلب إلى قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، فقامت بإرسال استفسار للبعثة السوفيتية في تركيا قالت فيه: "... لقد طرح تيورياقولوف علينا مجددا موضوع جلال عارف القائم بالأعمال التركي في جدة، وكنا قد أبلغناكم منذ سنة ونصف أن جلال عارف الذي أقام علاقات حميمة للغاية مع تيورياقولوف يشعر بالظلم، لأنه على درجة قائم بالأعمال لم يتعداها على مدار عدة أعوام، وقد طلب منّا الرفيق تيورياقولوف طرح هذا الموضوع في أنقرة عندما تحين الفرصة لذلك والتوصية بترقية جلال عارف إلى درجة مبعوث، وقد كتبنا

إليكم في هذا الشأن في نهاية عام ١٩٣٤م ولكن لم يصلنا ردكم حول نتائج التحرك في هذا المسار، والآن وأنتم تخبرون الأتراك بأن الرفيق حكيموف قد حل محل الرفيق تيورياقولوف يمكنكم أن تتطرقوا مرة أخرى إلى موضوع المندوب التركي في جدة، وتستوضحوا منهم لماذا يكتفون في جدة بقائم بالأعمال طيلة عدة سنوات بعد وفاة مبعوثهم هناك، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أن جلال عارف يتمتع بمكانة كبيرة في جدة، وأن لدينا تقارير من الرفيق تيورياقولوف تثني عليه، وبإمكان الرفيق بولياكوف إبلاغكم بشكل أكثر تفصيلا عن المندوبين الأتراك في جدة في السنوات الأخيرة".

بيد أنه في نهاية هذا الخطاب المؤرخ في ١٣ مارس ١٩٣٦م كانت هناك إضافة تقول إنه "بعد تحرير الخطاب وصلتنا رسالة من الرفيق حكيموف مندوبنا في جدة تفيد بأن معلومات الرفيق تيورياقولوف بشكل عام تحتاج إلى بعض التصحيح، ولذلك فيما يخص البند الأول (بشأن القائم بالأعمال التركي) لا تتخذوا أي إجراءات، فنحن نستفسر من الرفيق حكيموف في الوقت الراهن إذا كان يلزم أن نتدخل في هذا الموضوع من عدمه". ويبدو أن هذه الملحوظة الناتجة عن تقارير المندوب الجديد وكذلك جهود «أهل الخير»، وهو أمر وارد تماما، قد وضعت نقطة النهاية في مشوار نذير تيورياقولوف الدبلوماسي.

وكان تيورياقولوف لا يزال يعيش ويعمل في موسكو، ربما في انتظار تعيينه في منصب جديد، ولكن مصيره كان قد تحدد، حيث صدر الإذن رقم ٢٨٩١ «بإلقاء القبض على نذير تيورياقولوف وتفتيشه بالعنوان ٢ ش سيرافيموفيتش، شقة رقم ٣٠٩» بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٣٧م، وحضروا إليه لتنفيذ الأمر يوم ١٧ منه.

وقد أثبت التحقيق الذي استمر ثلاثة أشهر ونيف أن "نذير تيورياقولوف يُعد منذ عام ١٩٣١م عضوا نشطا في منظمة تركمانية إرهابية تخريبية تعمل ضد الاتحاد السوفيتي وهدفها إسقاط السلطة السوفيتية، وفي نشاطه الفعلي المناهض للثورة كان المتهم تيورياقولوف على علاقة منتظمة بريسكولوف رئيس هذه المنظمة، حيث قام تيورياقولوف بتكليف من ريسكولوف بالاتصال برجل المخابرات التركي مصطفي جواد والتجسس لصالح تركيا، كما قام تيورياقولوف بالدعاية للوحدة التركمانية ضد الثورة والدعوة إلى استخدام الأساليب الإرهابية في الصراع ضد قادة السلطة السوفيتية". هكذا انعكست العلاقات الودّية للمندوب السوفيتي لدى المملكة العربية السعودية مع المندوبين الأتراك على مصيره، تلك العلاقات التي كان يسعى لاستغلالها لصالح بلاده.

وفي الثالث من نوفمبر وخلال الجلسة المغلقة «للهيئة العسكرية بالمحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية برئاسة القاضي العسكري الرفيق ماتوليفيتش وعضوية كل من القاضي العسكري الرفيق زاريانوف والقاضي العسكري الرفيق ستيلماخوفيتش» صدر الحكم التالي:

«بعد الإطلاع على ملف القضية الخاص بنذير تيورياقولوف، من مواليد ١٨٩٣، الخبير السابق بمعهد اللغة والكتابة التابع لمجلس القوميات باللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، بتهمة ارتكابه الجرائم المنصوص عليها بالمواد رقم ١/٥٨ أ، و ٨/٥٨، و ١١/٥٨ من القانون الجنائي لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية... وثبوت التهمة

المنسوبة إليه بارتكابه الجرائم المنصوص عليها بالمواد رقم ١/٥٨ أ، و ٨/٥٨، و ١١/٥٨ من القانون الجنائي لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية حكمت الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية على نذير تيورياقولوف بتوقيع أقسى العقوبة الجنائية عليه وهي الإعدام رميا بالرصاص مع مصادرة كافة ممتلكاته الشخصية، ويعد هذا الحكم نهائيا وغير قابل للنقض ويلزم تنفيذه فورا طبقا لقرار اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الصادر بتاريخ الأول من فبراير عام ١٩٣٤".

وتشير «المعلومات» إلى أن "الحكم الصادر بإعدام نذير تيورياقولوف" قد تم تنفيذه في موسكو في الثالث من نوفمبر عام ١٩٣٧م، كذلك طال الاضطهاد أقرب أقربائه، حيث قامت الأجهزة بإلقاء القبض على زوجته نينا تيورياقولوفا في الثاني من نوفمبر عام ١٩٣٧م في موسكو، وصدر قرار من المجلس الخاص التابع للجنة الشعبية للشئون الداخلية بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٣٧م بالحكم عليها «بصفتها أحد أعضاء أسرة الخائن لوطنه» بخمس سنوات بمعسكرات الأشغال والتعذيب، وشاء القدر أن تقضي مدة العقوبة في مدينة أكمولينسك في كازاخستان مسقط رأس زوجها.

وفي السابع عشر من مايو ١٩٤٠م تم اعتقال أخيه بافل سالمين وكان وقتها طالبا في معهد الطّرُق في موسكو، حيث وُجهت إليه تهمة الدعاية ضد الاتحاد السوفيتي، وصدر قرار من المجلس الخاص التابع للجنة الشعبية للشؤون الداخلية بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٤٠م بثلاث سنوات بمعسكرات

الأشغال والتهذيب، وأثناء قضائه مدة العقوبة وفي التاسع عشر من أغسطس عام ١٩٤٤م صدر ضده حكم آخر بالسجن عشر سنوات، في هذه المرة بتهمة انتمائه «لمنظمة ثوار مناهضة للاتحاد السوفيتي»، أما بقية أفراد أسرة تيورياقولوف وهم أخوه وحماته وغيرهم فقد تفرقت بهم السبل في أرض الله كما كان الحال في ذلك الزمن العصيب، أما ابنته الوحيدة آنيل التي رُزق بها في عام ١٩٢٥ فقد عملت في العديد من المؤسسات في موسكو، حيث أبلت بلاء حسنا نالت عليه تقديرا من قبل رئاسة مجلس السوفيت الأعلى التي كرمتها في عام ١٩٤٨ بمنحها نوط «ذكرى مرور ثمانمائة عام على إنشاء مدينة موسكو»، وتوفيت عن عمر يناهز السبعة والسبعين عاما ودُفنت بمدينة تركستان موطن والدها في مقاطعة جنوب كازاخستان.

ومع ذلك كان لابد للعدالة أن تنتصر، فجاء عام ١٩٥٧م وبدأ مصير المندوب المضطهد يشغل اهتمام أجهزة التحقيق من جديد، ولكن في هذه المرة لغرض مخالف للغرض السابق وهو معرفة الحقيقة، حيث أرسل وكيل النيابة العسكرية العامة يستفسر عن نشاط تيورياقولوف من الأرشيف الحزبي المركزي بمعهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي، فجاءه الرد بأن "الأرشيف لا يتوافر لديه معلومات إلا عن عمله في الفترة من عام ١٩٢٨ إلى ١٩٣٥م كمندوب مفوض للاتحاد السوفيتي في الجزيرة العربية، ولم يتم العثور في هذه الملفات على أي معلومات تفيد انتماء نذير تيورياقولوف لمنظمات مناهضة للاتحاد السوفيتي".

وفي الثامن والعشرين من يناير عام ١٩٥٨م قامت الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا للاتحاد السوفيتي بإعادة النظر في قضية تيورياقولوف، وفي هذه المرة استنادا إلى تقرير ممثل النيابة اقترحت هيئة المحكمة "إلغاء الحكم

الصادر بشأن نذير تيورياقولوف، وإيقاف الدعوى لعدم توافر عناصر الجريمة استنادا إلى ما توصّلت إليه التحقيقات الإضافية من حيثيات جديدة تدل على بطلان إدانة تيورياقولوف وتثبت براءته".

وبعد مراجعة ملفات القضية والتحقيقات الإضافية، وبالموافقة على تقرير النائب العسكري الأول قررت الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا للاتحاد السوفيتي "إلغاء الحكم الصادر من الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا ضد نذير تيورياقولوف بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩٣٧ استنادا للحيثيات الجديدة، وإيقاف الدعوى لعدم توافر عناصر الجريمة".

لكم تأخر هذا! ويا له من ظلم أن تنتهي حياة هذا الرجل الفذ والدبلوماسي الموهوب بهذه الصورة السخيفة وبهذه العجالة غير المنصفة! فلو استغل الاتحاد السوفيتي إتقانه للغة العربية وقوة سليقته وقدرته على إقامة علاقات مع كافة أوساط المجتمع -بدءًا من الملك حتى التاجر البسيط- لأمكنه والحرب على الأبواب أن يكفل لنفسه أقصى درجة ممكنة من العلاقات الطيبة مع دول هذه المنطقة ذات الأهمية الكبرى.

وبعد سحب تيورياقولوف وإعادة تعيين حكيموف خلفا له استمرت العلاقات السوفيتية السعودية فترة قصيرة، إلا أن المندوب الجديد قد لاقى مصير سلفه نفسه، حيث تم استدعاؤه إلى موسكو في السادس من سبتمبر عام ١٩٣٧م وإدانته وإعدامه استنادا إلى وشاية وشى بها أحد أعضاء البعثة، كما تعرضت زوجته وابنته للاضطهاد والنفي.

وبالطبع لم يكن الوضع الداخلي في الاتحاد السوفيتي في نهاية الثلاثينيات ليمر دون أن ينعكس على علاقاته مع المملكة العربية السعودية، فعمليات

الاضطهاد التي تعرض لها الدبلوماسيون لم تغب عن انتباه القيادة السعودية، إذ اهتز الملك آل سعود لمصير كلا الدبلوماسيين السوفيتيين اللذين كان يعرفهما جيدا، ورأت حاشيته حالة الغم التي انتابته من شدة التنكيل الذي تعرض له «الأخ نذير». وعلى كل حال فقد ألمح الملك من خلال القنوات الدبلوماسية أنه لا يرغب في رؤية المزيد من المندوبين السوفيت. وفي أبريل من عام ١٩٣٨م بعثت اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية السوفيتية بمذكرة للمملكة العربية السعودية، تعلن فيها أنه استنادا إلى عدم توافر الآمال في تحسين العلاقات السوفيتية السعودية في المستقبل المنظور قررت موسكو تجميد الاتصالات مع المملكة وإغلاق بعثتها في جدة. وفي الحادي عشر من سبتمبر من العام نفسه غادر آخر أعضاء البعثة السوفيتية أراضي المملكة العربية السعودية.

وأغلقت البعثة السوفيتية، وانخفض عدد الحجاج السوفيت إلى أدنى حد له، وانقطعت العلاقات بين البلدين. وتفيد بعض المعلومات بأن مفتاح مقر البعثة ظل محفوظا في بلدية جدة لسنوات طويلة، أما المبنى نفسه فقد ظل مهجورا. وبعد الحرب العالمية الثانية توطّدت مكانة الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط بدرجة كبيرة، إلا أن الإفراط في إضفاء الصبغة الأيديولوجية على السياسة الخارجية السوفيتية، ورهان موسكو على أنظمة «التوجه الاشتراكي»، وكذلك الطابع الإلحادي الحربي الذي كانت تتسم به للدولة السوفيتية، كل هذا حال دون إحياء العلاقات السوفيتية السعودية، واستمرت «القطيعة» بين البلدين حتى عام ١٩٩٠م.

الخاتمة

لم يكن نذير تيورياقولوف قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره عندما رحل عن دنيانا بصورة مأساوية بعد حياة ناصعة حافلة بالأحداث العاصفة والعمل المضني، وقد راح ضحية لأعمال الاضطهاد التي شهدتها الثلاثينيات، شأنه شأن آلاف مؤلفة من رجال الدولة والقادة العسكريين والعلماء والدبلوماسيين السوفيت وعدد هائل ممن سطع نجمهم في السنوات الأولى بعد الثورة وأرسلتهم السلطة إلى أصعب ميادين النضال السياسي والاقتصادي من أجل بناء الاشتراكية، ثم داست على كفاحهم وحياتهم بلا رحمة.

لقد نشأ في كنف والده التاجر الكازاخي، ولكنه لم يرغب في أن يعيش في جلباب أبيه، فتلقى حظا من التعليم في تخصصات مختلفة، وأثبت مكانته في العمل الدبلوماسي وأجهزة الدولة وفي مجال الصحافة وميدان اللسانيات. كان رجلاً عالي الثقافة واسع الاطلاع، يتقن عدة لغات، فكان دبلوماسيا بالفطرة وكنزًا لا يقدر بثمن بالنسبة للجنة الشؤون الخارجية بالدولة السوفيتية الشابة التي كانت على بداية الطريق نحو إقامة علاقات مع العالم الخارجي، فمعرفته بعادات الشرق الإسلامي ودقائق أموره، وقدرته على التحاور في مختلف الموضوعات بدءًا من السياسة والاقتصاد وانتهاءً بالعلوم،

والتزامه الكامل وقت الضرورة بتعاليم الإسلام، كل ذلك فتح له أبواب وقلوب حكام المملكة، بل وبسطاء مواطنيها.

كان يحظى عن جدارة باحترام زملائه الدبلوماسيين، وكانت قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية تستمع لرأيه، والجميع يحاولون اتباع نصائحه وتوصياته، ولم يكن ذنبه أن الكثير مما تمكن من عمله كمندوب مفوض لدى المملكة العربية السعودية وأعد الساحة له بمهارة بقي دون تنفيذ، فبمعايير ذلك الوقت كان مجرد التلميح كافيا لكي يساء تفسير أنبل التصرفات وأفضل الأفكار التي يقدمها هذا الدبلوماسي الموهوب. والآن من الصعب أن نتوصل إلى السبب الحقيقي وراء النقمة التي تعرض لها المندوب المفوض نذير تيورياقولوف رغم عمله المثمر في الدولة السعودية، ومن الصعب أن يتضح بصورة كاملة ما الشيء الذي تصور بعض الناس أنه يمثل خطرا بل وإجراما في نشاطه. ولكن أغلب الظن أن عمله الفاعل الذي كان يلقى تقديرا واجبا من قبل رؤسائه قد أثار الحقد لدى زملائه الأقل منه نجاحا.

لقد ظل نذير تيورياقولوف على مدار الأعوام الثماني من العمل الدبلوماسي المتفاني يسعى نحو تهيئة المناخ لأقصى درجة للتواجد السوفيتي في المملكة العربية السعودية، فما فتئ يدافع عن مصالح بلاده، ويبرع في تسوية العلاقات السياسية، ويعمل في إصرار على تنمية العلاقات التجارية، ويرتب شؤون البعثة، ويكافح من أجل زعامة السلك الدبلوماسي، كل ذلك يجعلنا نحس بالمرارة حين نعرف أن استقالة هذا الرجل الفذ، والدبلوماسي الأمين المخلص لوطنه، والمواطن الحق، ثم التنكيل به بعد ذلك شر تنكيل قد

أغلق أمام الاتحاد السوفيتي -لنحو نصف قرن- الطريق إلى واحدة من أغنى دول المنطقة وأكثرها نفوذا في الوقت الراهن، رغم أنه كان بإمكان السوفيت أن يثبّتوا أقدامهم في هذه الدولة بقوة ولفترة طويلة بفضل جهود نذير تيورياقولوف.

ونود لو أننا بهذا الكتاب، وكذلك الكتابين اللذين صدرا قبله حول النشاط الدبلوماسي لتيورياقولوف، نخلّد ذكرى رجل عظيم وخبير محترف هو المندوب المفوض نذير تيورياقولوف الذي ردّت له الدولة اعتباره، أمّا نحن فنعطيه حقه بصفته سياسياً، ودبلوماسياً، ومواطناً، ستظل أهدافه النبيلة وخدماته الجليلة للوطن محفورة في وجدان الشعب إلى الأبد.

❖ ❖ ❖